خطبة صلاة الجمعة 15/ 10/ 2021 للشَّيخ الطَّبيب محمّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(الصّدق في حياة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وكيف نتحلى به)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيّدنا محمّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

وقال سبحانه مخاطباً نبيّه محمّداً صلّى الله عليه وسلّم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

أخرج الإمام الترمذيّ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكم إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِني مَجْلِساً يَوْمَ القِيَامَةِ: أَحَاسِنَكُم أخلاقاً**»

وأخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللهِ صلّى الله عليه وسلّم: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**» وفي رواية البزار: «**مكارم الأخلاق**».

مع مطلع شهر ربيع الأوّل؛ شهر ولادة سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، بدأنا سلسلةً جديدةً من الخُطب تناسب الزمان والاحتياج، عنوانها: (**أخلاق النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وكيف نتحلّى بها**).

وهذه الخطبة الثّانية وعنوانها:

الصّدق في حياة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وكيف نتحلّى به.

سَبق أنّ الخُلق: هو اسم لصورة الإنسان الباطنة، كما أن الخِلْقة اسم لصورته الظاهرة. (لسان العرب)

والأخلاق تكون فطريّة وتكون مكتسبة؛ فمن فطره الله على خلق حسن فليحمد الله، ومن لم يجده في نفسه فليتدرّب على اكتسابه، وهذا الواجب العمليّ الأهمّ على مستمع هذه السلسلة.

أيّها الإخوة:

تعلمون أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان معروفاً بالصّدق قبل الإسلام، مشهوراً به؛ ففي السَّنة الخامسة والثّلاثين من عُمُره صلّى الله عليه وسلّم أعادتْ قريش بناء الكعبة، وتقاسمتْها أرباعاً، فلمّا انتهَوا إلى موضع الحجر الأسود، تنازعتْ القبائل أيّها يضعه موضعه، حتّى كادوا يقتتلون، ثمّ اتّفقوا على أن يحكّموا أوّل داخل عليهم من بني هاشم.

فكان صلّى الله عليه وسلّم هو أوّل داخل، فقالوا: هذا محمّد، هذا الصّادق الأمين، رضينا به، فحكّموه، فبسط صلّى الله عليه وسلّم رداءَه ووضع الحجر فيه، وأمر أربعةً من رؤساء القبائل الأربع، أن يأخذوا بأرباع الثّوب، فرفعوه إلى موضعه، فتناوله صلّى الله عليه وسلّم بيده المباركة، فوضعه في موضعه. (انظر: حدائق الأنوار)

فقد لقّبوه قبل الإسلام بالصّادق الأمين.

وكان صدقه صلّى الله عليه وسلّم واضحاً لا يُخْفَى، بيّناً لا يُسْتَر، لا يستطيع صديق أو عدوّ نكرانه.

جاء في كتب الشّمائل والسّير: لما بلغ هرقلَ -ملكَ الروم- كتابُ النبيّ داعياً له إلى الإسلام، طلب ناساً من قومه يسألهم عنه، فجيء له برَهْط فيهم أبو سفيان بن حرب -وكان يومها مشركاً- فكان ممّا قال له: (هل كنتم تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟) قال أبو سفيان: لا، قال هرقل: (ما كان ليدعَ الكذب على النّاس ويكذب على الله!!). (السيرة الحلبية)

وفي صحيح البخاريّ: صَعِد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على الصفا، فجعل ينادي: «**يَا بَنِي فِهْرٍ! يَا بَنِي عَدِيٍّ!**» - لِبُطُونِ قُرَيْشٍ - حَتَّى اجْتَمَعُوا ....، فقال: «**أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**» قالوا: (نَعَمْ؛ مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلاَّ صِدْقًا)، وفي رواية: (ما جرّبنا عليك كذباً).

فالصّدق خُلُق النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وهو صلّى الله عليه وسلّم معروف به، والمتوقَّع أن يكون الصّدق صفتَكَ، وأن تكون معروفاً به.

عرّف العلماء **الصّدق** بأنه: القول المطابق للحقيقة.

وفي القرآن الكريم والحديث النبويّ نصوص كثيرة تدعو إلى التزام الصّدق والبعد عن الكذب.

أخرج الترمذيّ عن الحسن بن عليّ رضي الله عنهما قال: «**إنَّ الصّدق طُمأنينة والكذبَ رِيبَة**»، وأخرج عن ابن عمرَ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «**إذا كذَبَ العبدُ تباعَدَ عنه المَلَكُ مِيلاً من نَتن ما جاء به**».

وقد لَحظ بعض العلماء أنّ الآية التي في سورة النحل: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: 105] تحصر هذه الآية افتراء الكذب في الّذين لا يؤمنون، فدلّ ذلك على عظيم خطر الكذب!

أما الكذبات العارضات في حياة الإنسان التي لا تكون افتراءً مدبّراً مقصوداً، والتي لا تكون عن خلق أصيل ثابت، فربّما تزلّ قدم المؤمن فتقع منه، وهو يجتهد بتركها ويتوب منها.

يخبره أنّه سيعطيه دفعةً من حسابه الخميس القادم وهو يعلم من نفسه أنّه كاذب لن يعطيَه شيئاً!

يسأل رجلٌ متعهّداً كم يستغرق إكساء الشّقة؟ فيجيبه: إنه يسلّمه إيّاها خلال ثلاثة أشهر، ويعلم المتعهّد من نفسه أنّه لا يستطيع تسليمه الشّقة قبل ستة أشهر!

تقول للخاطِبين: إنّ ابنتها تدرس الطّبّ، وهي طالبة في المعهد الصحي!

يخبر أهل الفتاة المخطوبة أنّه يملك بيتاً وهو مستعيرٌ للبيت من أخيه المسافر الذي سيعود بعد سنتين!

يُقسِم للزّبون أنّه لم يربح بالسّلعة إلّا ألفاً، وقد ربح بها خمسة!

تشهد أمام قاضي الشّرع شهادة زور، تقول: إنّ صِهرها مفقودٌ منذ خمس سنوات، والرّجل موجود وقد تشاجرَت معه قبل أسابيع!

يقترض من صديقه مبلغاً على أن يردّه رأسَ الشّهر، وهو يعلم من نفسه الكذب، فلن يأتيه مثل هذا المبلغ قبل سنة!

هذه المواقف وأشباهها – أيّها الإخوة- يُخشى أن تكونَ من الافتراء المدبّر المقصود، وتدخلَ في الآية السابقة.

كيف يتحلّى المرء بالصّدق؟

لعلّ أهمَّ ما في هذه الخطب هذه الفقرةُ العمليّةُ التي ستتكرّر فيها بإذن الله.

إنّه من رحمة الله تعالى وكمال فضله على الناس أنّهم جميعاً مفطورون على الصّدق منذ ولادتهم؛ يظهر ذلك من مراقبة الصّغار، فَهُم في أساس تكوينهم مفطورون على حبّ الحقّ وتصديق قول الآخرين.

وإنّما يكتسب الطّفل الكذب اكتساباً ويتدرّب عليه تدرّباً.

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «يُطبَع المؤمن على الخِلال كلّها إلّا الخيانة والكذب» **[رواه أحمد]**.

فإذا أراد امرؤٌ التحلّيَ بالصّدق فما عليه إلّا أن يحافظَ على فطرته التي جُبِل عليها، ويبتعدَ عن العوامل التي تُكسِبه الكذبَ، وهي ثلاثة: **البيئة، والاعتياد بتكرار الخبرات، ومؤثرات الأهواء والشّهوات**.

– أمّا **البيئة**: فمَن جالس أهل الصّدق ثبّتوا الصّدق عنده، ومن جالس الكاذبين أصابته عدواهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119]، وقد جاءت هذه الآية في سورة التّوبة بعد قصّة الثّلاثة الّذين تخلّفوا عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في غزوة تبوك وصدقوا مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ببيان حالهم، فكان جزاء صِدقهم أن أنزل الله توبتَهم، قال واحدهم: (يا رسول الله، إنّ الله تعالى إنّما أنجاني بالصّدق، وإنّ من توبتي ألّا أُحدِّث إلّا صدقاً ما بقيت) [أخرجه النّسائي في السّنن الكبرى].

ولكنّ الّذين كذبوا من المنافقين وتعلّلوا بالعلل والأعذار الكاذبة دمَغهم القرآن بالنّفاق، قال القرطبي: (هذا الأمر بالكون مع أهل الصّدق حسن بعد قصّة الثّلاثة حين نفعهم الصّدق وذهب بهم عن منازل المنافقين).

فمن وضع نفسه في بيئة الصّدق تأثّر بها ونفعه الصّدق، ومن وضع نفسه في بيئة الكذب تأثّر بها وأضرّ الكذب به.

– وأمّا **الاعتياد بتكرار الخبرات**: فمن كذب مرّة ثمّ مرّة ثمّ مرّة تحوّل الكذب منه من تجربة إلى عادة، ثمّ من عادةٍ إلى خُلق وطبع.

أخرج البخاريّ ومسلم عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «**عليكم بالصّدق، فإنّ الصّدق يهدي إلى البرّ، وإنّ البرَّ يهدي إلى الجنّة، وما يزال الرّجل يَصدُق ويتَحرَّى الصّدق حتّى يُكتَبَ عند الله صدّيقاً، وإيّاكم والكذب، فإنّ الكذب يهدي إلي الفجور، وإنّ الفجور يهدي إلى النّار، وما يزال الرّجل يكذب ويتحرَّى الكذب حتّى يُكتَب عند الله كذّاباً**».

فالرّجل يكذب، ويفتّش عن كِذبة جديدة، ويتحرّى تكرار الكذب حتّى يصير كذّاباً في الأرض ويُكتبَ كذّاباً في السماء.

والصّواب لمن زلّت قدمه وكذب أن يتركَ الكذب مباشرةً، ويندمَ على ما صدر منه، ويعزمَ على عدم العود، ويصدُقَ ويتحرّى الصّدق حتّى يُكتَب عند الله صدّيقاً.

– وأمّا **مؤثّرات الأهواء والشّهوات**: فمعلوم أنّ النّفس أمّارة بالسّوء، تدعو صاحبها إلى الشّهوات والوقوع في المحظورات؛ فتدعوه إلى الكذب لإضحاك النّاس مثلاً، أو الكذب لتحصيل ربح عاجل، أو الكذب للتّباهي على النّاس بما لم يُعطَ، أو الكذب بأن يُري عينيه ما لم تريا...!

والمتوقَّع من المرء أن يؤدِّب نفسه وينهاها عن هواها بالصّوم والصّدقات وسائر النّوافل ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41)﴾ [النازعات: 40، 41].

والحاصل أنّ المرء مفطور على الصّدق، فلْيحافِظ على فِطرته، ولْيحذر من بيئة الكذب أو تكرار خبرات الكذب أو مؤثّرات الأهواء والشّهوات.

أيّها الإخوة:

في شهر ربيع أكثروا من الصّلاة والسّلام على سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فإنّه مَن صلّى عليه صلّى عليه، ومن سلّم عليه سلّم عليه، وتدارسوا مع مَن حولكم حديثه صلّى الله عليه وسلّم وأخلاقَه، وسُنّتَه وسيرته، ليكون النبيّ حاضراً فينا وتكون سُنّته ماثلةً بيننا.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56]

والحمد لله رب العالمين